

مجالس القصاص والوعاظ

وأثرها فى التفسير والحديث وموقف العلماء منها

د . فاطمة الزهراء محمد سعاد جلال (*)

المقدمة :

تتناثر أخبار مجالس القصاص فى التراث الفكرى الإسلامى وانتشرت أحاديثهم بما تحمله من موضوعات وإسرائيليات ، فى التفسير والحديث والسيرة والتاريخ وكافة العلوم الإسلامية ، وتشكل جدلا فى كثيرا من الأحيان وما زالت إلى يومنا هذا تذخر مصنفاتنا بهذه الأحاديث والمرويات التى ساهم فيها القصاص بقدر كبير ، ولكن هؤلاء القصاص تفاوتوا فى عملهم الدينى وثقافتهم ، ودرجة أمانتهم فى النقل والرواية ، ولم يكونوا جميعا على درجة واحدة من الصدق والأمانة . وكان بعضهم ثقة اشتهر شهرة واسعة كالحسن البصرى والتابعى الجليل . مالك بن دينار وقاص أهل مكة عبيد بن عمير ومحمد بن قيس قاص عمر بن عبد العزيز ، وغيرهم. هذا إلى جانب عشرات من القصاص المجهولين .

واعتبر العلماء هذه المجالس وما يروى فيها من أحاديث موضوعة وقصص وأباطيل بنى إسرائيل - فى مقدمة الأسباب التى أدت إلى الوضع فى الحديث ، وإلى تضخم التفسير بكثير من المرويات التى نقلت عن مسلمى أهل الكتاب وتسربت إلى التفسير عن طريق القصاص كوهب بن منبه ، وكعب الأخبار .

بل تجاوز بعض العلماء المعاصرين وادعى أن الصحابى الجليل عبد الله بن عباس أكثر من الأخذ عن مسلمى أهل الكتاب واعتمد عليهم فى تفسيره .

وتهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن حقيقة هذه المجالس ؛ ما لها وما عليها ، ومتى نشأت وعلاقتها بالمجالس فى عهد النبى ﷺ ، والاسباب التى أدت إلى تحولها

(*) المدرس بقسم اللغة العربية ، كلية الآداب - جامعة حلوان .

من الوعظ والذكر إلى رواية الموضوعات والإسرائيليات ، كما تستعرض الدراسة موقف العلماء من هذه المجالس ، وموقف العامة من هؤلاء القصاص وهل حقاً ساهمت مجالس القصاص فى إفساد التراث أم أن هناك مجالس كان لها دور فى إثراء الفكر والعلوم الإسلامية .

* *

المبحث الأول

مجالس القصص والوعاظ فى صدر الإسلام

لمحة تاريخية

١- القص والذكر والوعظ فى اللغة والعلاقة بينهم :

القص فى اللغة ؛ بمعنى البيان ، والقصص بالفتح الاسم ، واقتصصت الحديث رويته على وجهه ، والقص فعل القاص إذا قص القصص . قال الأزهري : القص ، اتباع الأثر ، ويقال خرج فلان قصصا فى أثر فلان وقصا ، وذلك إذا اقتص أثره ومنه قيل : القاص يقص القصص لاتباعه خبرا بعد خبر وسوقه الكلام سوقا . القاص : الذى يأتى بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها وألفاظها^(١) وهذا التعريف لابن منظور يتضمن أمرين :

الأول : ضرورة تتبع الخبر عند روايته مفصلا لبيانه ، والثانى : أن راوى الخبر (القاص) يشترك فيه الأمانة والصدق فيأتى بالخبر بألفاظه ، دون زيادة أو نقصان .

أما الذكر : فهو جرى الشئ على لسانك وقال الفراء : الذكر ما ذكرته بلسانك وأظهرته ، ونقل ابن منظور قول أبى العباس ، الذكر : الصلاة ، والذكر قراءة القرآن ، والذكر التسبيح ، والذكر الدعاء ، والذكر الطاعة^(٢) .

وقال الزجاج : فلان يذكر الله أى يصفه بالعظمة ويثنى عليه ويوحده^(٣) وهذه المعانى كلها تتفق مع ما كان فى مجالس الذكر فى عهد الرسول ﷺ . الوعظ والعظة

(١) لسان العرب لابن منظور مادة قص ، ج ٧ ص ٣٨٩ دار الحديث عام ٢٠٠٣ القاهرة .

(٢) لسان العرب مادة ذكر ، ج ٣ ص ٥١٤ ، ٥١٥ .

(٣) المرجع السابق .

والموعظة : النصيح والتذكير بالعواقب ، قال ابن سيده : هو تذكيرك للإنسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب^(١) .

فإذا كان القص هو تتبع الخبر بمعانيه وألفاظه فإن الذكر والوعظ هو ما يتضمنه هذا القص من قرآن والتسبيح والدعاء ، والنصح بخشية الله والتذكير بالثواب والعقاب. "ولذلك صار اسم القاص عاما للأحوال الثلاثة القص والوعظ والتذكير"^(٢) .

تتكون مجالس القصاص من ثلاث أركان

<p>٣-الذكر والوعظ هو المضمون الديني والفكري الذي يتناوله المجلس في صور عدة.</p> <p>١-قراءة القرآن وتفسيره</p> <p>٢-رواية الحديث</p> <p>٣-رواية السيرة النبوية</p> <p>٤-التسبيح والتهليل</p> <p>٥-التذكير بالوعد والوعيد الوعد الآخر</p> <p>٦-الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر</p> <p>٧-قراءة الأدب ومناقشة القضايا الدينية</p>	<p>٢-القص وهو الإطار الذي يدور فيه المجلس (لأن القص معناه تتبع الأخبار وسوق الكلام منتظما وهذا القص قد يكون</p> <div style="text-align: center;"> </div>	<p>١-القاص وهو المؤدى للوعظ والذكر مستخدما آلية القص وقد يكون القاص</p> <div style="text-align: center;"> </div>
-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------	----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------	------------------------------------------------------------------------------------------------------------------

٢-القص والذكر والوعظ في الحديث النبوي :

جاء في الحديث النبوي ذكر القص والذكر والوعظ بمعنى واحد ، وكذلك ورد في شرح ابن حجر ، والنووي وغيرهما من العلماء. ومثال ذلك ما رواه ابن شهاب

(١) لسان العرب مادة وعظ ، ج ٩ ص ٣٤٩ .

(٢) علم الحديث ، ابن تيمية ، ت موسى محمد على ٤٩٤ .

قال : أخبرني الهيثم بن أبى سنان : "أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه وهو يقص في قصصه - وهو يذكر رسول الله ﷺ : إن أخا لكم لا يقول الرفث ، يعنى بذلك عبد الله بن رواحة^(١) .

قال ابن حجر : معنى قول أبى هريرة : وهو يقص في قصصه . أى مواعظه التى كان أبو هريرة يذكر أصحابه بها^(٢) ، فهذا يشير إلى أن القصص المقصود بها المواعظ .

وجاء الذكر بمعنى الوعظ فى قول السيدة عائشة - رضي الله عنها - فى الحديث : "أن ناسًا طافوا بالبيت بعد صلاة الصبح ، ثم قعدوا إلى المذكر ، حتى إذا طلعت الشمس قاموا يصلون ، فقالت عائشة - رضى الله عنها - : قعدوا حتى إذا كانت الساعة التى تكره فيها الصلاة قاموا يصلون^(٣) . قال صاحب فتح البارى : "ثم قعدوا إلى المذكر" أى اللواعظ^(٤) .

وكان ابن مسعود يقول "وأنى أتخولكم بالموعظة كما كان النبى ﷺ يتخولنا بها مخافة السامة علينا^(٥) .

قال ابن حجر : "كان يراعى الأوقات فى تذكيرنا ولا يفعل ذلك كل يوم لئلا نمل^(٦) . وفى هذا إشارة إلى أن الموعظة فى عهد رسول الله ﷺ لهما مفهوم واحد ، وكذلك قول ابن حجر : "ويقص فى قصصه" أن المقصود بالقصص المواعظ .

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ، أحمد بن على بن حجر العسقلانى تحقيق عبد العزيز بن عبدالله بن باز ، دار المنار طبعة أولى ١٩٩٩م ج ٣/٥١ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) المرجع السابق ج ٣/٥٨٢ .

(٤) المرجع السابق ج ٣/٥٨٤ .

(٥) المرجع السابق ج ١/٢٠١ .

(٦) المرجع السابق ج ١/٢٠٠ .

ولذلك فهذه الروايات الواردة في الصحاح وغيرها تجعلنا نتوقف عند الخبر الذي يروى أن "أول من قصّ تميم الدار^(١) في عهد عمر. قال ابن عساكر : "إنه لم يكن يقص على عهد النبي ﷺ ولا على عهد أبي بكر وكان أول من قص الدار^(٢) استأذن عمرًا أن يقصص على الناس قائمًا ، فأذن له عمر^(٣) . وفي رواية أخرى. أن تميم الدار^(٤) استأذن عمر في القصص سنين ، فأبى أن يأذن له ، فاستأذنه في يوم واحد ، فلما أكثر عليه قال له : ما تقول ؟ قال : أقرأ عليهم القرآن وأمرهم بالخير ، وإنها هم عن الشر ، قال عمر : ذلك الذبح (وفي رواية الربيع) ثم قال : عظ قبل أن أخرج في الجمعة ، فكان يفعل ذلك يومًا واحدًا في الجمعة . فلما كان عثمان استزاده فزاده يومًا آخر^(٥) .

فالقاص أو الوعظ أو المذكر هو الشخص الذي يلتقى بالناس في مجلس خاص ويعتني بوعظهم وقص كل ما يتعلق بالدين من وعد ووعد وترهيب وترغيب وغير ذلك مما يتضمنه القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف . ثم توسع هذا المعنى بعد ذلك وشمل غير هذه الأمور .

(١) هو تميم بن أوس بن خارجة بن سود بن دارع بن عدى ابن الدار بن هاني بن حبيب بن نمارة بن لخم بن كعب أسلم وصحب الرسول وغزا معه وروى عنه (الطبقات الكبرى لأبن سعد مج ٧ ص ٤٨) وجاء الاصابة أبو تميم الدار مشهور في الصحابة كان نصرانيًا وقدم المدينة فأسلم قال ابن السكن أسلم سنة تسع هو وأخوه نعيم ولهما صحبة وقال أبو نعيم : كان راهب أهل عصره وعابد أهل فلسطين وهو أول أسراج السراج في المسجد رواه الطبراني ، انتقل إلى الشام بعد مقتل عثمان وسكن فلسطين يكنى أبا رقية بابنة له تسمى رقية لم يولد له غيرها ، الاصابة في تميز الصحابة ج ١/١٨٤ .

(٢) تاريخ مدينة دمشق للإمام الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر ٤٤٩-٥٧١ تحقيق الدين أبي سعيد عمر بن غرام العمري - دار الفكر ، ط ١٩٩٥ ، بيروت لبنان - ج ١١/٨١ وسير أعلام النبلاء ج ٢/٤٤٧ .

(٣) المرجع السابق .

فهذه الرواية تشير إلى أن القص كان بمعنى الوعظ والتذكير كما كان في عهد النبي ﷺ ، ولذا لما سأل عمر بن الخطاب تميما ما نقول ؟ قال : أقرأ عليهم القرآن وأمرهم بالخير ، وأنهاهم عن الشر .

وهذا كله مما كانت تتضمنه مجالس الرسول ﷺ ، كما أن عمر بن الخطاب عندما وافق على طلب تميم الداري في أن يقص استعمل لفظ "الوعظ" وقوله : "عز قبل أن أخرج في الجمعة" (١) . يشير إلى أن معنى القصص لم يختلف عن معنى الوعظ أو التذكير في عهد النبي ، ولم يتغير مضمون مجلس القص أو الوعظ منذ عهد النبي ﷺ - بما فيه من قراءة القرآن ، وأمر بالمعروف ، ونهي عن المنكر وتذكير باليوم الآخر - عما طلب تميم الداري أن يقوم به . ولذلك نعتقد أن القول بأن أول من قص هو تميم الداري قول غير دقيق لأن مجالس الوعظ والقص مستمدة من مجالس النبي ﷺ ثم اقتدى به بعض الصحابة كعبد الله بن مسعود ؛ فالشاهد على ذلك ما رواه أبو وائل قال : "كان عبد الله يذكر الناس في كل خمسين ، فقال له رجل ، يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم ، قال : أما إنه يمنعني من ذلك أي أكره أن أملككم ، وإن أتخولكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السامة علينا" (٢) .

وهذا الحديث يفهم منه أن عبد الله بن مسعود كان يعقد مجلسا للذكر والوعظ كل أسبوع في يوم الخميس ، وأنه لم يشأ أن يكثر من هذه المجالس خشية ملل الناس اقتداء برسول الله ﷺ في ذلك . وفيه دليل أيضا على أن هذه المجالس لم تكن مستحدثة على عهد الخليفة عمر ، إنما هي مستوحاة من مجالس رسول الله ﷺ .

(١) المرجع السابق .

(٢) هو حنظلة الأسدي : هو منسوب إلى بنى أسيد بطن من بنى تميم وجاء عن مسلم أنه من كتاب النبي ﷺ ، قال النووي وكان من أصحاب النبي ﷺ وكلاهما صحيح لكن الأول أشهر في الرواية وأظهر في المعنى . صحيح مسلم بشرح النووي ، مكتبة زهران عن طبعة أولى ١٩٩٩ ج ١٧/٦٦ .

يمكن أن نعلل عدم موافقة عمر لتميم في القصر إلا بعد الحاح شديد من تميم وذلك لخشيته مما قد يقال في هذه المجالس من كذب على رسول الله أو الخوض فيما لا يجوز .

ونستدل على ذلك بذكر بعض الأحاديث التي تبين فضل مجالس الذكر والوعظ ومكانتها عند الله سبحانه وتعالى .

٣- مجالس الرسول ﷺ التي تتضمن الوعظ :

روى مسلم بسنده عن حنظلة^(١) قال : "كنا عند رسول الله - فوعظنا فذكر النار ، قال : ثم جئت إلى البيت فضاحكت الصبيان ولاعبت المرأة . قال : فخرجت فلقيت أبا بكر فذكرت ذلك له ، فقال : وأنا قد فعلت مثل ما تذكر فلقينا رسول الله ﷺ - فقلت: يا رسول الله نافق حنظلة ، فقال : فحدثته بالحديث . فقال أبو بكر : وأنا قد فعلت مثل ما فعل فقال : يا حنظلة ساعة وساعة ، ولو كانت تكون قلوبكم كما تكون عند الذكر لصافحتكم الملائكة حتى تسلم عليكم في الطرق"^(٢) . وفي رواية أخرى : عن حنظلة قال : "قلت نكون عند رسول الله يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأى عين فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ .. إلى قوله فقال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده أنكم لو تداومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات"^(٣) .

نستخلص من الحديث معنى من معاني الذكر والوعظ وهو التذكير بالجنة والنار ووصف لهما وما بهما من ثواب وعقاب. وأن الوعظ والذكر بمعنى واحد. ولذلك في رواية اكتفى بقوله : فوعظنا فذكر النار "وفي رواية أخرى : يذكرنا بالنار والجنة"^(٤). وفي جوابه ﷺ - على حنظلة قال : "لو تداومون على ما تكونون عندي وفي الذكر

(١) المرجع السابق ص ٦٧ .

(٢) انظر السابق ص ٦٧ .

(٣) المرجع السابق الصفحة نفسه .

(٤) المرجع السابق .

لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ، "ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات" (٢) . وكأن مداومة الإنسان على ما يكون عليه في حالة الذكر من الخشوع والورع والزهد في كل الأوقات مستحيلة ، ولذلك قال له رسول الله : ساعة وساعة ، وكررها ثلاث مرات ، أى وقت للذكر والتعبد ووقت لرعاية أسرته ، وإدارة شئونك .

قال النووي : "تافق حنظلة" معناه انه خاف أنه منافق حيث كان يحصل له الخوف في مجلس الرسول ﷺ ويظهر عليه ذلك مع المراقبة والفكر والاقبال على الآخرة ، فإذا خرج استغل بالزوجة والأولاد ومعاش الدنيا . وأصل النفاق إظهار ما يكتم خلافه من الشر ، فخاف أن يكون ذلك نفاقا . فأعلمهم النبي ﷺ أنه ليس نفاقا وأنهم لا يكلفون الدوام على ذلك ساعة وساعة أى ساعة كذا وساعة كذا" (١) .

ومن نماذج الوعظ في مجالس الرسول ﷺ - ما ورد في صحيح البخاري عن أنس بن مالك يذكر آخر مجلس لرسول الله ﷺ كما جاء في الحديث يقول : "مر أبو بكر والعباس - رضى الله عنهما - بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبيكون ، فقال : ما يبكيكم ؟ قالوا : ذكرنا مجلس النبي ﷺ منا .

فدخل على النبي ﷺ فأخبره بذلك . قال : فخرج النبي ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية برد قال : فصعد على المنبر ، ولم يصعده بعد ذلك اليوم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أوصيكم بالأنصار ، فإنهم كرشى وعييتى ، وقد قضوا الذى عليهم وبقي الذى لهم ، فأقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم" (٢) .

ولم يقتصر مجلس الرسول ﷺ على الرجال ، بل حرص النبي ﷺ على عظ النساء وتذكيرهن ، فجعل لهن يوماً يجلس إليهن ليعظهن . روى البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري : "قالت النساء للنبي ﷺ غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوماً من نفسك ، فوعدهن يوماً ليقبهن فيه فوعظهن وأمرهن ، فكان فيما قال لهن : "ما منكن

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ج٧/١٣١ .

(٢) المرجع السابق ج١/٢٣٩ .

امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار فقالت امرأة واثنين ؟ فقال : واثنين" (١) .

لذلك خصص البخاري باباً عن "عظة الإمام النساء وتعليمهن" (٢) . وتتضمن عظة الرسول ﷺ للنساء وأمرهن بالصدقة ومنه أن رسول الله ﷺ خرج ومعه بلال فظن أنه لم يسمع ، فوعظهن وأمرهن بالصدقة فجعلت المرأة تلقى القرط والخاتم ، وبلال يأخذ في طرف ثوبه .

الحديثان السابقان يقدمان صورة لما كانت عليه مجالس وعظ الرسول وخطابه لنساء المسلمين ، وما تضمنه مجلسه من تذكير باليوم الآخر ووعد للصابرين ، ودعوة للتصدق وجزاء الصبر على فقد الأبناء . وهي الصورة المثلى التي كان يجب أن تكون عليها مجالس القص والوعظ دائماً ويحتذى بها القصاص والوعاظ في مجالسهم .

٤- فضل مجالس الوعظ والذكر في الحديث النبوي :

جاء في السنة النبوية بعض الأحاديث تشير لفضل مجالس الذكر والوعظ ، وتبشر رواد هذه المجالس بثمارها في الدنيا والآخرة ، ومنه ما روى مسلم بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : "إن الله تبارك وتعالى ملائكة سيارة (٣) فضلاً (٤) . يتبعون مجالس الذكر فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكر قعدوا معهم وحف بعضهم بعضاً بأجنتهم حتى يملؤوا ما بينهم وبين السماء الدنيا ، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء ، قال : فيسألهم الله عز وجل وهو أعلم بهم من أين جئتم ؟ فيقولون : جئنا من عند عباد

(١) السابق ج ١/ ٢٣٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٣٥ .

(٣) لله ملائكة سيارة : أما السيارة فمعناه سائقون في الأرض .

(٤) فضلاً يتبعون مجالس الذكر : أي أنهم ملائكة زائدون على الحفظة وغيرهم من المرتبين مع الخلائق فهؤلاء السيارة لا وظيفة لهم وإنما مقصودهم خلق الذكر . انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٧/ ١٤ .

لك في الأرض يسبحونك ، ويكبرونك ويهللونك ، ويحمدونك ، ويسألونك قال : وماذا يسألوني ؟ قالوا : يسألونك جنتك . قال : وهل رأوا جنتي ؟ قالوا : لا أي رب . قال : فكيف لو رأوا جنتي ؟ قالوا : ويستجيرونك . قال : ومم يستجيرونني ؟ قالوا : من نارك يارب . قال : وهل رأوا نارى ؟ قالوا : لا : قال : فكيف لو رأوا نارى ؟ قالوا : ويستغفرونك . قال : فيقول قد غفرت لهم فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا . قال : فيقولون : رب فيهم فلان عبد خطاء إنما مر فجلس . قال : فيقول : وله غفرت ، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم^(١) .

ويتضمن الحديث عدة فوائد منها :

١- يعلمنا الرسول ﷺ ما يجب أن يكون في هذه المجالس من شكر وحمد ، وتسبيح وتكبير لله سبحانه وتعالى وما بها من تذكير بالجنة ونعيمها ، والنار وأهوالها ، ووعظ بالاستغفار والتوبة .

٢- أن لهذه المجالس مكانة خاصة عند سبحانه فهو يكرم عباده بإرسال ملائكته يحضرون هذه المجالس ، ويخبرونه عن روادها وعن ذكرهم فيغفر لهم ويعطيهم ما يسألون .

٣- لا يقتصر رضاه وثوابه على هؤلاء الذاكرين ، ولكنه امتد إلى أحد العابرين الذي انضم إلى مجلسهم بالرغم من كثرة خطايا وذنوبه فغفر الله له إكراماً للذاكرين . وهذا يذكرنا بقوله ﷺ مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير .

ونتناول حديثاً آخر يخبرنا بمكانة رواد هذه المجالس الذين يجتمعون لذكر الله وحمده ، والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف ؛ ما رواه البخارى بسنده عن أبي سعيد الخدرى قال : "خرج معاوية على حلقة في المسجد فقال ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله . قال الله ما أجلسكم إلا ذاك ؟ قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذاك . قال :

(١) السابق ج ١٧/ ١٤ ، ١٥ .

أما إنى لم استحلفكم تهمة لكم ، وما كان أحد بمنزلة من رسول الله أقل عنه حديثاً منى ، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومن به علينا . قال : الله ما أجلسكم إلا ذاك ؟ قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذاك . قال : أما إنى لم استحلفكم تهمة لكم ، ولكنه أتانى جبريل فأخبرنى أن الله عز وجل يباهى بكم الملائكة^(١) .

قال النووى : "إن الله عز وجل يباهى بكم الملائكة معناه يظهر فضلكم لهم ، ويربهم حسن عملكم ، ويثبى عليكم عندهم^(٢) .

وفي الحديث بيان لفضل الذكر الخالص لله ، المنزه عن أي غرض إلا حمد الله وتسبيحه ، وفيه بشرى لهؤلاء الذاكرين برضى الله عنهم وبأنه يفاخر بهم الملائكة . وهذه هي الصورة الأولى لمجالس الوعظ والقص التى ظلت قائمة بعد وفاة النبى ﷺ وحتى نهاية عصر الصحابة .

٥-آداب المجالس المستفادة من الحديث النبوي :

كما سن الرسول ﷺ آداب وضوابط عامة في مجالسه التزم بها الصحابة والتمسناها في أحاديثه ؛ أجملها ابن عباس فيما رواه عكرمة قال : "حدث الناس كل جمعة مرة ، فإن أبيت فمرتين ، فإن أكثرت فثلاث مرات ، ولا تمل الناس هذا القرآن، ولا ألفينك تأتى القوم وهم فى حديث ن حديثهم فتقص عليهم فتقطع عليهم حديثهم فتملهم ، ولكن أنصت ، فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه . فانظر السجع من الدعاء فاجتنبه، فإنى عهدت رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك الاجتناب"^(٣).

الحديث يوجه نظر القاص إلى عدة أمور هي :

١- ألا يفرض علي المخاطبين في وقت يكونون فيه غير راغبين فى الاستماع إليه.

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ج ٢٣/١٨ .

(٢) المرجع السابق : ج ٢٣/١٨ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ١١/١٥٥ .

٢- النهي عن قطع حديث غيره وألا يحدثهم إلا إذا طلبوا منه .

٣- لا يكثر في الحديث حتى لا ينصرفوا عنه .

٤- لا يعمد إلى التكلف في الحديث باستخدام ألوان البديع كالسجع وغيره حتى لا يتشاغلوا به عن الذكر والدعاء ؛ ولذلك قال "وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه" أى لا تقصد إليه ولا تشغل فكرك به لما فيه من التكلف المانع للخشوع المطلوب فى الدعاء، ونقل ابن حجر رأي الغزالي بأن "المكروه من السجع هو المتكلف لأنه لا يلائم الضراعة والذالة ، وإلا ففي الأدعية المأثورة كلمات متوازية لكنها غير متكلفة" (١) . أما الأزهرى فيرى أن كراهة النبي ﷺ للسجع لمشاكلته كلام الكهنة (٢) .

وبذلك وضع الحديث كثيرا من الآداب والأسس التي يجب أن يلتزمها القاص الواعظ فى مجلسه من حيث التوقيت ، والأداء ، والأسلوب الوعظي ، وهو حديث ذو ملمح دقيق وعميق ؛ لأنه يراعى حالة المخاطبين النفسية فيوصي بعدم الإلحاح عليهم بالموعظة حتى لا تنصرف قلوبهم عن المقصود بها ، وتتشاغل خواطرهم بغيرها ، كما يرى ضرورة استخدام أسلوب التشويق فى القص مع الإيجاز والبعد عن التصنع أو التكلف فى القول .

نستخلص مما عرضناه أن ما جاء من معنى القص لا يختلف عن معنى الذكر والوعظ فى هذه الفترة . وأن مجالس القصاص فى بدايتها كانت مستمدة من مجالس الرسول ﷺ وإن تغيرت صورتها تغيرت صورتها بعد عصر الصحابة لأسباب سنذكرها فيما بعد ، ولهذا فقد رويت أحاديث لرواة من القصاص الثقات - أيضا - مثل قاص أهل مكة عبيد بن عمير. ذكر ابن سعد أنه : "كان ثقة كثير الحديث" (٣)

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق .

(٣) الطبقات الكبرى - لابن سعد ج ٨/ ٢٤ .

وقال العجلي : مكي ثقة من كبار التابعين^(١) وله رواية عن عمر وعلى وأبي ذر وأبي بن كعب وأبي موسى ، وعائشة وابن عمر وغيرهم^(٢) ومن القصاص الثقات أيضا ممن أخذ عنهم الحديث ووثقهما الشيخان القاص عبد الرحمن بن أبي عمرة ، ومحمد بن قيس قاص عمر بن عبد العزيز وقد رويت لهما أحاديث في الصحيحين .

ومن ذلك ما رواه البخارى قال حدث حماد بن سلمة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن عبد الرحمن بن أبي عمرة القاص عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يحكى عن ربه عز وجل : "أذنب عبد ذنبا فقال : اللهم اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدى ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنوب ثم عاد فأذنب فقال : أي رب اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى : عبدى أذنب ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب اعلم ما شئت فقد غفرت لك..."^(٣) وجاء فى رواية أخرى " .. كان بالمدينة قاص يقال له عبد الرحمن بن أبي عمرة قال : فسمعت يقول سمعت أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول^(٤) " أن عبدا اذنب ذنبا ... الخ" بمعنى حديث حماد ابن سلمة .

يتضمن الحديث ما رواه القاص فى مجلسه عن رسول الله ﷺ من تذكير ووعظ ، وافية أيضا اشاره إلى أن هذه الفئة من القصاص الثقات لا يقصون إلا ما هو صحيح ، ويتوخون الدقة فى رواية الأحاديث ، وتفسير القرآن الكريم والنقل عن الصحابة ، كما يستفاد منه أن علماء الحديث لم يتخرجوا فى الرواية عن القاص ما دام ثقة والحديث متصل الإسناد .

ومن هؤلاء محمد ابن قيس روى مسلم بسنده "حدثنا ليث عن محمد بن قيس قاص عمر بن عبد العزيز عن أبي صرمة عن أبي أيوب أنه قال حين حضرته

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة - ابن حجر العسقلانى ج ٥/ ٤٧ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٧/ ٧٥ ، ٧٦ .

(٤) المرجع السابق ج ١٧/ ٧٦ .

الوفاة : كنت كنتم عنكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ - سمعت رسول الله ﷺ يقول : "لولا أنكم تذنّبون لخلق خلقاً يذنبون يغفر لهم" (١) .

فى إسناده هذا الحديث محدث وقاص هو محمد بن قيس ، ذكر النووى أن "البخارى فى التاريخ" روى عنه قوله : كنت قاصّاً لعمر بن عبد العزيز وهو أمير بالمدينة (٢) . ويتضح من هذا الحديث أن القاص كان من المهام التى يعتد بها الحاكم . وأن مجالس القصص كانت معروفة ومعترف بها منذ زمن مبكر فى تاريخ الدعوة ، كما نلاحظ أن كل الأحاديث التى رويت عن الوعاظ أو القصص من المحدثين الثقات تدور حول التوبة والاستغفار والحساب واليوم الآخر وغيرها من صنوف الوعظ والتذكير .

٦- موقف الصحابة من مجالس القصص والوعاظ :

يبدو أن الصحابة اختلفوا فى مواقفهم من مجالس القصص والوعظ بعد وفاة النبى - ﷺ - وهذا ليس بغريب ، فقد كانوا حريصين على الدعوة وعلى حفظ القرآن وقراءته ، ويخشون على الحديث وروايته أن يدخله شيء من التحريف أو الكذب ، ونحن نعلم - ما كان من تخرج بعض الصحابة من رواية الحديث ، وموقف عمر بن الخطاب حينما فكر فى تدوين الحديث ثم اعرض بعد أن استأخّر به شهراً كاملاً ، وهذا يدلنا أنهم كانوا يتخوفون من مجالس القصص والوعظ أيضاً حتى لا يدخلها ما دخلها بعد ذلك من موضوعات ، وإسرائيليات ، ولذلك قابل بعض الصحابة روايات القصص بالحيلة والحذر وبعضهم شكك فى روايتهم . فنجد السيدة عائشة تنبه ابن عمير إلى عدم الإفراط فى التذكير . روى عبد الملك عن عطاء قال : "دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة رضى الله عنها فقالت : من هذا ؟ فقال أنا عبيد قالت : قاص أهل مكة ؟ : نعم . قالت : خفف فإن الذكر ثقيل" (٣) .

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٧/٦٤ .

(٢) المرجع السابق ج ٤/٦٤ .

(٣) الطبقات الكبرى - ج ٨/٢٤ .

ويدعم ذلك بعض ما جاء فى الصحيحين ، مثل ما رواه سعيد بن جبير التابعى الجليل وهو يسأل ابن عباس عن صحة قول القاص إن موسى صاحب الخضر ليس موسى بنى إسرائيل ، وقد روى الحديث عن عمرو بن دينار ويعلى ابن مسلم قال : إنى لعند ابن عباس فى بيته إذ قال سلونى ، قلت : أى أبا عباس ، جعلنى الله فداءك بالكوفة رجل قاص يقال له نوف^(١) . يزعم أنه ليس بموسى بنى إسرائيل^(٢) . قال (سعيد ابن جبير) أما عمرو^(٣) . فقال لى : قال : (أى ابن عباس) : قد كذب عدو الله وأما يعلى^(٤) . فقال لى : قال ابن عباس : حدثنى أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : موسى رسول الله ﷺ قال : ذكر الناس يوماً ، حتى إذا فاضت العيون ورقفت القلوب ولى .." (٥) .

وفى الحديث عدى أمور تهمنا : الأمر الأول : هى تشكك التابعى الجليل فيما قاله القاص نوف وذلك قال : يزعم أنه ليس بموسى بنى إسرائيل ، والزم فيه تضعيف وتقليل فى صحة القول . الأمر الثانى : استتكار ابن عباس لما قاله نوف فقال : قد كذب عدو الله "كما جاء فى رواية عمرو بن دينار . وهى عبارة بها جزم

(١) قال ابن حجر : نوف يفتح النون وسكون الواو وبعدها فاء ..(اسم أبيه فضالة بفتح الفاء وتخفيف المعجمة ، وهو منسوب إلى بنى بكال بن دهمي بني سعد بن عوف بطن من حمير ، ويقال أنه ابن امرأة كعب الأحبار وقيل ابن أخيه وهو تابعى صدوق (فتح البارى ج٨/٤٦٢) .

(٢) وذلك فى تفسير قوله تعالى ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ (سورة الكهف) وهو يسأل هل موسى صاحب الخضر غير مرسى بنى إسرائيل .
(٣) عمرو هو عمرو بن دينار راوى الحديث عن سعيد بن جبير . انظر فتح البارى الحديث رقم ٤٧٢٦ ج٨/٤٦٠ .

(٤) هو يعلى بن مسلم اشترك مع عمرو فى رواية الحديث عن سعيد وإن كان يزيد أحدهما على صاحبه انظر المرجع السابق .

(٥) الحديث بطوله فى فتح البارى شرح صحيح البخارى رقم ٤٧٢٦ ، وانظر أيضاً ٤٧٢٧/٤٦٠ .

وتأكيد بخطأ ما يقول واستخدم (قد) للتحقيق والتأكيد على الكذب ، ثم وصفه بأنه عدو الله لكذبه فيما يخص نبي الله موسى . أما ما جاء في الرواية الأخرى التي رواها يعلى بن مسلم ، فهي تصحيح لقول نوف واستدل على ما ذهب إليه ، بما حدثه به الصحابي الجليل أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ وهو أقوى حجة لإثبات أن موسى صاحب الخضر هو موسى النبي .

ونذكر شاهداً آخر يوضح موقف الصحابة من القصاص وذلك أن عبد الله بن مسعود غضب وثار على قاص لأنه كان يفسر القرآن برأيه وشدد النكير عليه ؛ وذلك فيما رواه أبو الضحى عن مسروق قال : "كنا عند عبد الله^(١) جلوساً وهو مضطجع بيننا فأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن إن قاصاً عند أبواب كندة^(٢) يقص ويزعم أن "آية الدخان"^(٣) تجئ فتأخذ بأنفاس الكفار ويأخذ المؤمنون منه كهيئة الزكام "فقام عبد الله وجلس وهو غضبان : يأبها الناس اتقوا الله من علم منكم شيئاً فليقل بما يعلم ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم . فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم الله أعلم فإن الله عز وجل قال لنبيه ﷺ ما رأى من الناس إدباراً فقال اللهم سبع كسيع يوسف قال : فأخذوهم سنة حصت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع وينظر إلى السماء أحدهم فيرى كهيئة الدخان^(٤) .

وفي رواية أخرى من طريق مسلم بن صبيح عن مسروق قال : "جاء إلى عبد الله رجل فقال : "تركت في المسجد رجلاً يفسر القرآن برأيه يفسر هذه الآية : يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (الدخان آية ١٠) قال : يأتي الناس يوم القيامة دخان فيأخذ بأنفاسهم حتى يأخذهم منه كهيئة الزكام . فقال عبد الله : من علم علماً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم . فإن من فقه الرجل أن يقول : لما لا علم له به الله أعلم"^(٥) .

(١) قال ابن حجر : عبد الله أي ابن مسعود ، فتح الباري ج ٨/ ٦٥٠ .

(٢) قال النووي : حجر عند أبواب كندة : هو باب بالكوفة - صحيح مسلم ج ١٧/ ١٤٠ .

(٣) قال تعالى : ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ (الدخان آية ١٠) .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٧/ ١٤١ .

(٥) المرجع السابق .

ويستدل من الحديث السابق على أن العامة كانوا يتلقون قصص وأحاديث القصص بحذر وتوجس ، ولهذا سأل الرجل ابن مسعود عن صحة ما يقوله القاص في تفسيره لآية الدخان ، وفي قوله "يقص ويزعم" دليل على عدم تصديقه للقاص . وفي الرواية الثانية : تركت في المسجد رجلاً يفسر القرآن برأيه .. وفيه استتار من هذا الرجل الذي يشكو أن القاص يجلس في المسجد ويتجراً على القرآن ويفسر آية الدخان برأيه ، وهو هنا يلجأ للصحابي ليصحح ما جاء به القاص من فهم خاطئ للآية وقد غضب من جهل القاص ، وقوله في القرآن بغير علم ؛ ولذلك نهض وخطب في الناس يحذرهم القول من غير علم ودعاهم للتثبت يقولون ، وإلا فإنه أفضل لأحدهم أن يقول لما لا يعلم الله أعلم . ولم يقف ابن مسعود عند حد الاستنكار لما يقوله القاص بل حرص على أن يفسر ويوضح مقصود الآية للمخاطبين وأسباب نزولها ، وهو بعيد تماماً عما قاله القاص ، وفي تحذيره للناس بآلا يقول أحد إلا بما يعلم تعريضاً بجهل القاص ، وتقريعه .

ولهذا لم تكن تلك المجالس في بدايتها إلا مجالس علم ووعظ بعيدة عن الروايات الموضوعية يعقدها العلماء الثقة ، ويشير د/ مصطفى الشكعة إلى كثرة هذه المجالس ودورها العلمي في عصر الصحابة والتابعين فيقول : "كانت هناك حلقات كبرى لكثير من أئمة المسلمين ، وعلمائهم ، فهذا عبد الله بن عباس يجلس في الكعبة وحوله عدد كبير من الناس يسألونه فيجيب على أسئلتهم ، وهذا ربيعة الرأي يجلس في مسجد الرسول في حلقة كبيرة من الناس وافرة العدد تجمع بين الصفوة والعامة والصغار والكبار ؛ فالإمام الحسن بن علي يفد إليه مستمعاً فيمن يفد ، والإمام مالك يتردد عليه وهو لا يزال صبيّاً يريد أن يغترف من بحر علمه . وفي مسجد الرسول أيضاً يجلس الإمام جعفر الصادق بعد فترة من الزمن واسعة تفصل بين مجلس ومجلس ربيعة الرأي يفيض على الناس من علمه وفقهه وفضله ، ومهما قيل في حلقات الدرس هذه التي كانت تسمى بحلقات القصص أو مجالسهم ، فإنها خرجت عدداً كبيراً من علماء المسلمين وأئمتهم كما نشطت العقل الإسلامي ودرسته على الجدل

الذى نشط لمناقشة اليهود والنصارى فى محافل عامة ، أو مجادلة الفرق الإسلامية بعضها بعضاً^(١) .

ومع ذلك نجد من العلماء المحققين من يدعى أن بعض الصحابة كانوا يروون عن القصاص من مسلمى أهل الكتاب بل تجاوزت بعض الدراسات ونسبت لكبار الصحابة الإكثار من النقل عن القصاص مما يتنافى مع العقل ويتعارض مع المنطق ، ومن ذلك ما كتبه الدكتور النشار عن كعب الاحبار : " .. وكان كعب الاحبار ، وقد ادعى "علم الكتاب" يقص ويستمع عمر لقصصه ، وتذكيره ووصفه للجنة وللنار ولمشاهدهما ، وكانت عينا عمر متفتحة وأذناه صاغيتين لكل مستحدث يخالف الإسلام، وكان كعب الاحبار يعلم هذا فلم يستطع - فى عهد عمر - أن يدلى بدلوه فى إثارة الفتنة ، والقاء بذور الحقد بين المسلمين ، وما إن تولى عثمان حتى أخذ الرجل يقوم بدوره فى إثارة الأمويين على بنى هاشم ... وكان كعب الاحبار يلعن "الكوفة" كما كان عهد عبد الله بن سبأ يلعن "دمشق" بل يقال إن كعب الاحبار قد نهى عمر نفسه عن الذهاب إلى الكوفة بدعوى أن فيها "الشياطين والجن ، والأرواح الشريرة" ووجد كعب الاحبار الفرصة مواتية فى رحاب عثمان ، ثم انتقل للشام مثيراً للأمويين فيها .. وكان يحمل "علم النجوم والسحر والطلسمات" وأراد عبد الله بن عمرو بن العاص ، وهو شخصية غريبة اتسمت بالزهد ، أن يتعلم منه بعض هذا العلم^(٢) .

وهذا النص يحتاج لأكثر من وقفة ؛ الأولى : فيما يختص بقوله بأن عمر كان يستمع لقصصه ، وتذكيره ووصفه للجنة وللنار ولمشاهما ، وهل يحتاج عمر بن الخطاب الخليفة العادل الرشيد لمن هو فى علم وثقافة كعب الاحبار أن يعظه ويذكره؟ ومن المعروف أن الصحابى تميم الدارى طلب من عمر بن الخطاب أن يقص وألح حتى وافق عمر أن يقص مرة واحدة فى الأسبوع وسأله ماذا يقص ؟ ليثبت أن ما يقصه على الناس غير مخالف للقرآن أو صحيح السنة بالرغم من أن تميماً كان

(١) مناهج التأليف عند العرب د. مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين ص ٣٣ .

(٢) نشأة الفكر الفلسفى الإسلامى الدكتور على سامى النشار ج ١ ص ٦٩ دار المعارف

الطبعة السابعة ١٩٧٧ .

صحابيا جليلا . والثانية قوله : إن كعب الأحبار قد نهى عمر نفسه عن الذهاب إلى الكوفة بدعوى أن فيها "الشياطين والجن والأرواح الشريرة" فكسف بوجه كعب هذا الكلام للخليفة عمر بن الخطاب وهو كلام يتنافى مع العقل وكل ما نعلمه عن عمر بن الخطاب من التزام حاد بالدين وأحكامه ، ومن جرأة فى رأى ، واعتداده بالعقل والمنطق . الثالثة "نقل د . النشار هذا الكلام دون أن يذكر مصدره مع كثرة المصادر ودقتها . أما الوقفة الرابعة ما قاله عن الصحابى الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص الذى كان يتسم بالورع والزهد ، ومن أنه أراد أن يتعلم من كعب الأحبار علم النجوم والسحر والطلسمات ، وأنه شخصية غريبة اتسمت بالزهد . ما وجه الغرابة فى شخصية هذا الصحابى الذى اتسم بتحرى الدقة ، والتشدد فى الرواية حتى إنه كان قليل الرواية عن الرسول ﷺ - لحرصه الشديد على تحرى الدقة والالتزام الشديد بالطاعات وهو فى كل هذا - كما أشرنا انفا - لم يوثق كلامه من أى مصدر ، وإنما أطلقه دون تحفظ ، ونحن نعلم أن القول بأنه سعى لتعلم السحر والنجوم يتنافى مع صحيح الدين ، وقد نهى الرسول عن السحر والكهانة بل إنه كان يكتب بكل ما يصدر عن النبى ﷺ ولما نهاه بعض القرشيين عن ذلك استأذن النبى ﷺ فأذن له بالكتابة وكانت له صحيفة تسمى الصادقة .

وذكر د . أحمد أمين "أن الصحابى الجليل ابن عباس كان يستمد الكثير من المعانى والتفسيرات من القاص كعب الأحبار الذى عرف عنه نشر الإسرائيليات ، ويقول عنه : "وقد أخذ عنه اثنان - هما أكبر من نشر علمه : ابن عباس ، وهذا يعلل ما فى تفسيره من إسرائيليّات وأبو هريرة ، ولم يؤثر عنه أنه ألف كما أثر عن وهب بن منبه ولكن تعالىمه - على ما وصل إلينا - كانت شفوية ، وما نقل عنه يدل على علمه الواسع بالثقافة اليهودية ، وأساطيرها^(١)". والقول برواية ابن عباس عن كعب الأحبار يحتاج إلى توقف لما هو معلوم عنه من تثبت فى الرواية ، وحرص على الإسناد ، وقد روى قول ابن عباس : "إننا كنا نحدث عن رسول الله ﷺ إذ لم يكن

(١) فجر الإسلام ، أحمد أمين مكتبة النهضة المصرية ص ٢٠١ طبعة ١٢ سنة ١٩٧٨ القاهرة.

يكذب عليه ، فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه" (١) . وفى حديث آخر "أن بشيرا العدوى جاء إلى ابن عباس فجعل يحدث ويقول : قال رسول الله ﷺ قال : فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه ولا ينظر إليه ، فقال يابن عباس مالى لا أراك تسمع لحديثي ؟ أحدثك عن رسول الله ولا تسمع ؟ فقال ابن عباس : إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلا يقول : قال رسول الله ابتدرته أبصارنا ، وأصغينا إليه بأذاننا ، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف" (٢) .

فكيف بمن كان على هذا القدر من الوعي بخطورة الإسناد ومن كان فى دفته أن يتساهل فى النقل عن مسلمى أهل الكتاب ، بل ويثبت فى الحديث الصحيح عن ابن عباس نهيه سؤال أهل الكتاب ، روى البخارى بسنده عن ابن عباس أنه قال : "يا معشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذى أنزل على نبيه - ﷺ - أحداث الأخبار بالله تقرأونه لم يشب ؟ وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب فقالوا : ﴿ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ (البقرة آية ٧٩) أفلا ينهاكم بما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ؟ ولا والله ما رأينا منهم رجلا قط يسألكم عن الذى أنزل عليكم" (٣) . فهذا الحديث دليل على استنكار ابن عباس للأخذ عن أهل الكتاب وكيف بصحابى جليل دعا له رسول الله بقوله : "اللهم فقه فى الدين ، وعلمه التأويل" أن ينساق وراء تفسيرات مسلمى أهل الكتاب ، ويحمل عنهم ما جاءوا به من أقاصيص وموضوعات وينشره بين المسلمين وهو يقول فى حديثه "أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسائلتهم ؟ وفى هذه العبارة تقرير وتوبيخ لكل من ينقل عنهم، ودعاهم أن يعتزوا بما أنزل على رسول الله من قرآن وما تركه من سنة والإعراض عن سؤال أهل الكتاب ، فيقول : والله ما رأينا منهم رجلا قط يسألكم عن الذى أنزل عليكم . بل نجد أحمد أمين يناقض رأيه فى نقل ابن عباس عن مسلمى أهل الكتاب وعن كعب الأخبار - فى موضع آخر من كتابه فيقول : "ويظهر أنه وضع على ابن

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، المقدمة ، الجزء الأول .

(٢) فتح البارى الجزء الخامس ص ٣٢٧ .

(٣) فجر الإسلام ص ٢٠٢ .

عباس ، وعلى (رضى الله عنهما) أكثر مما وضع على غيرهما ؛ ولذلك أسباب :
أهمها أن عليا وابن عباس من بيت النبوة ، فالوضع عليهما يكسب الموضوع ثقة
وتقديسا لا يكسبهما الإسناد إلى غيرهما .. وابن عباس كان من نسله الخلفاء
العباسيون يقرب إليهم بكثرة ما روى المروى عن جدهم^(١) .

وفى موضع آخر يقول : "وقد روى عن ابن عباس ما لا بحصى كثرة فلا تكاد
تخلو آية من آيات القرآن إلا لابن عباس فيها قول وأقوال وكثرت الرواية عند كثرة
جاوزت الحد ، واضطرت النقاد أن يتتبعوا سلسلة الرواية- فيعدلوا- بعضنا ويجرحوا
بعضا^(٢) (وقد ورد من طرق ابن الحكم : قال : سمعت : الشافعي يقول : لم يثبت عن
ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمائة حديث" .

فإن صح هذا دلنا على مقدار ما كان يخلق الوضاعون ، وإلى أى حد بلغت
جرأة الناس على الاختلاف ... " وفى هذا التعليق يبدو أن أحمد أمين يرد على نفسه
فيما نسبه إلى ابن عباس من نقل مرويات كعب الأحبار ، والأكثر من أقول مسلمي
أهل الكتاب .

إذن متى تحولت هذه المجالس عن مهمتها العلمية ؟

اهتمت الدولة فى العصر الأموى بتشجيع مجالس القصاص بل كانت تعين
القصاص كما تعين القضاة ، ثم أخذت تعين القصاص من القضاة فكان القاضى فكان
القاضى يجمع بين القضاء والقص يقول أحمد أمين : "وارتفع شأن القصص حتى
رأيناه عملاً رسمياً يعهد به إلى رجال رسميين يعطون عليه أجراً فترى فى كتاب
"القضاة" للكندى أن كثيراً من القضاة كانوا يعينون قصاصاً"^(٣) وحرص الأمويون على
تشجيع الحركة الأدبية والقصص الرسمى ففتحوا أبوابهم للشعراء والخطباء وبذلوا

(١) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ص ١٦٠ .

الأموال ، وعينوا القصاص فى المساجد" (١) . ويرجع هذا الاهتمام - كما يقول أحمد أمين - إلى أن "حكم الأمويين بنى على الضغط والقهر فكانت حاجتهم إلى الشعراء والقصاص أشد لأنهم هم الذين يبشرون بهم ، ويشيدون بذكرهم ، كما أنهم اتخذوا من القصص "أداة سياسية منذ عهد الفتن بين على ومعاوية يستعين بها كل على ترويج حزبه والدعوى له ، ويدل على ذلك "ما رواه ابن لهيعة عن يزيد بن حبيب أن علياً عليه السلام قنت فدعا على قوم من أهل حربه ، فبلغ ذلك معاوية فأمر رجلاً يقص بعد الصبح وبعد المغرب يدعو له ولأهل الشام" (٢) .

وبلغ الأمر من اهتمام الأمويين والعباسيين بالقصاص والوعاظ وتشجيعهم شأنًا عظيم الخاص فخصهم الجاحظ بفصل فى "البيان والتبيين" وذكر فيه طائفة من أخبار القصاص ممن كانوا يجمعون بين القص ، والحديث ، والشعر ، والخطابة . يقول ومن القصاص : أبو بكر الهذلى وهو عبد الله بن سلمى ، وكان بينا خطيبًا صاحب أخبار وآثار ، وقص مطرف بن عبد الله بن الشخير فى مكان أبيه ، ومن كبار القصاص ، ثم من هذيل : مسلم بن جندب وكان قاص مسجد النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وكان إمامهم وقارئهم ، وفيه يقول عمر بن عبد العزيز : من سره أن يسمع القرآن غصًا فليسمع قراءة مسلم بن جندب" (٣) . كما ذكر مجلس موسى بن سيار الأسوارى وهو من اشتهر بتفسير القرآن فى مجلسه : "وكان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به ، فتعقد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس ، فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدرى بأى لسان هو أبين ، واللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتهما إلا ما ذكرنا من لسان موسى بن سيار الأسوارى ، ولم يكن فى هذه الأمة بعد أبى موسى الأشعرى أقرأ فى محراب من موسى بن سيار ثم عثمان بن سعيد بن

(١) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٤ .

(٣) البيان والتبيين ، عمرو بن بحر الجاحظ عبد السلام هارون ج ١/٣٦٧ دار الفكر .

أسعد ، ثم يونس النحوى ، ثم المعلى . ثم قص فى مسجده أبو على الأسوارى ، وهو عمرو بن قائد ستاً وثلاثين سنة ، فابتدأ لهم فى تفسير سورة البقرة ، فما ختم القرآن حتى مات لأنه كان حافظاً للسير ، ولوجوه التأويلات فكان ربما فسر آية واحدة فى عدة أسابيع . كأن الآية ذكر فيها يوم بدر ، وكان هو يحفظ مما يجوز أن يلحق فى ذلك فى الأحاديث كثيراً وكان يقص فى فنون من القصص ويجعل للقرآن نصيباً من ذلك ، وكان يونس بن حبيب يسمع منه كلام العرب ، ويحتج به ، وخصاله المحموده كثيرة .. ويزعمون أن أبا على لم تسمع منه كلمة غيبة قط ، ولا عارض أحدا قط من المخالفين والحساد والبغاة بشيء من المكافأة^(١) . والخبران السابقان هما صورته لفنه من القصص الثقة البعيدة عن رواية الموضوعات والأسرائيليات .

ومن النماذج التى ذكرها الجاحظ أيضاً والتى تمثل القاص الواعظ التقى ، ما يحكيه عن "صالح المرى ، قال الجاحظ" فكان يكنى أبا بشير ، وكان صحيح الكلام رقيق المجلس ، فذكر أصحابنا أن سفيان بن حبيب ، لما دخل البصرة وتوارى عند مرحوم العطار قال له مرحوم : هل لك أن تأتى قاصاً عندنا هاهنا ، فنتفرج بالخروج والنظر إلى الناس ، والاستماع منه ؟ فأتاه على نكره ، كأنه ظنه كبعض من يبلغه شأنه ، فلما أتاه وسمع منطقه ، وسمع تلاوته للقرآن ، وسمعه يقول حدثنا شعبة عن قتادة ، وحدثنا قتادة عن الحسن رأى بياناً لم يحتسبه ، ومذهباً لم يكن يظنه فأقبل سفيان على مرحوم فقال : ليس هذا قاصاً ، هذا نذير^(٢) .

ونلاحظ فيما رواه الجاحظ أمرين : الأول : اعتراض سفيان على استقدام القاص فى قوله : "فأتاه على نكره ، كأنه ظنه كبعض من يبلغه شأنه" إشارة إلى استنكاره للقصص الذين يضعون الأحاديث ، ويسرفون فى رواية الإسرائيليات والقصص الغريبة ، الثانى : أنه لما سمعه أثنى عليه وأكبره لحسن قراءة القرآن ولعنايته بالإسناد فى رواية الحديث ، ونستنتج من هذا كله أن القصص فى ذلك

(١) المرجع السابق ج ١/ ٣٨٨ .

(٢) تاريخ الأدب العربى العصر العباسى الأول د. شوقي ضيف ص ٣٩٩ .

الوقت كانوا فئتين : فئة تتسم بالثقة والعلم يحفظون القرآن والحديث والسير والشعر ، وفئة الجهال ممن يبالغون ويغربون في الروايات والأقاويل ، وهؤلاء من كان لهم أثر كبير في دخول الإسرائيليات إلى التفسير والحديث ، ولذلك كان السمة الأساسية لأحاديثهم وأقاصيهم .

وكثر في العصر العباسي الأول القصاص والوعاظ "فقد كانت المساجد مكتظة بالوعاظ والنسك وأهل الحديث والفقه والورع ، ومن حولهم العامة" (١) . وأن كثيرين من القصاص والوعاظ كانوا ما يزالون ينشدون في وعظهم وقصصهم أبياتاً وأشعاراً كثيرة منها ما يروونه عن القدماء ممن سبقوهم ، ومنها ما ينشئونه إنشاءً ، فمن ذلك ما روى عن التابعي مالك بن دينار وما تضمنه مجلسه من علم وحديث وشعر .

"وكان مالك بن دينار المحدث الناسك لا يزال يتحدث في مجالسه عن الموت ، حتى لتكاد تخنقه العبرات ، وله أشعار مختلفة يتحدث في مجالسه عن الموت وأنه أجل محدود ونفس معدود ؛ وعما قليل يصبح الإنسان تراباً في تراب ، كمن سبقوه ، فأولى له أن يتعظ ويعتبر . ويقول" (٢) :

أتيت القبور فناديتها ————— ن أين المعظم والمحتقر
وأين المدل بسلطانه ————— وأين المذكي إذا ما افتخر
فأتوا جميعاً فما مخير ————— وماتوا جميعاً ومات الخبر (٣)

فالقصاص لم يقتصر على القص بل كان منهم المحدث وقارئ القرآن والمفسر والامام والخطيب والشاعر ، والكثير منهم على درجة كبيرة من الثقة والعلم والورع ، ومن أشهرهم الحسن البصري الذي "كان قاصاً من نوع خاص فلم يكن ينحو منحى الذين يعتمدون على الإسرائيليات والنصرانيات إنما كان يعتمد على التذكير بالآخرة

(١) المرجع السابق .

(٢) راجع عيون الأخبار ج ٢/٣٠٢ .

(٣) تاريخ الأدب ٤٠٠ .

ونحوها. ويستخرج العظة مما يقع حوله من حوادث ، فقد كان يجلس في آخر المسجد بالبصرة وحوله الناس يسألونك في الفقه وفي حوادث الفتن التي كانت في عهده ويحدثهم بما صح عنده من حديث ، ويقص عليهم فيعظهم ويذكرهم^(١).

* *

(١) فجر الإسلام ، أحمد أمين ص ١٦٢ .

المبحث الثاني

موقف العامة والعلماء من مجالس القصاص

أسباب إقبال القصاص والوعاظ على رواية الموضوعات والإسرائيليات :

فى عرضنا للمبحث الأول انتهينا إلى أن القصاص كانوا فئتين : فئة تتسم بالنقّة حريصة على صحة الرواية والعلم وهذه الفئة لقيت كثيرًا من الاحترام والتقدير - وقد ذكرنا أمثلة لها آنفاً - وفئة أخرى اتجهت إلى جمع كل ما هو غريب ومنكر ، فأدخلت كثيرًا من الموضوعات والإسرائيليات فى التراث . وسنحاول رصد الأسباب التى دفعت هؤلاء القصاص إلى حشو مجالسهم بالموضوعات ، وأقاصيص بنى إسرائيل وأكاذيبهم ، وقد اجتهد العلماء قديمًا وحديثًا لمعرفة هذه الأسباب ، فابن قتيبة يرى : "إنهم يميلون وجه العوام إليهم ، ويشيدون ما عندهم بالمناكير والأكاذيب من الأحاديث ، ومن شأن العوام القعود عند القاص ما كان حديثه عجيبًا خارجًا عن نظر العقول ، أو كان رقيقًا بحزن القلب ، فإذا ذكر الجنة قال : فيها الحوراء من مسك أو زعفران وعجيزتها ميل فى ميل ويبوى الله وليه قصرا من لؤلؤة بيضاء فيها سبعون ألف مقصورة فى كل مقصورة سبعون ألف قبة ، فلا يزال هكذا فى السبعين ألفا لا يتحول عنها^(١) . ويؤكد د. محمد أبو شهبه السبب نفسه وهو محاولة جذب العوام قائلًا : "فقد وجدت فئة من القصاص كان همها استمالة العامة بالمناكير والغرائب والأباطيل وعن طريق هؤلاء أيضًا دخلت على الإسلام إسرائيليّات كثيرة^(٢) . فكل منهما يرى أن حرص القصاص على جذب العامة إليهم لا يتم إلا بالإغراب فى القص والمبالغة فى الوعد والوعيد ، وذكر الجنة ومتاعها وغير ذلك .

وذكر ابن الجوزى عدة أسباب لروايتهم للموضوعات والإسرائيليات فى مقدمتها "لأنهم يريدون أحاديث تتفق وترقق والصاح يقل فيها هذا ثم إن الحفظ يشق عليهم ،

(١) تأويل مختلف الحديث ، لابن قتيبة ص ٣٥٧ .

(٢) الوسيط فى علوم الحديث ، د. محمد أبو شهبه ص ٣٣١ .

ويتفق عدم الدين ومن يحضرهم جهال". وذكر لنا شاهدًا من القصاص فى عصره يقول : "ولقد حكى لى فقيهان ثقتان عن بعض قصاص زماننا وكان يظهر النسك والتخشع أنه حكى لهما قال : قلت يوم عاشوراء ، قال رسول الله ﷺ : من فعل اليوم كذا فله كذا ، ومن فعل كذا له كذا إلى آخر المجلس ، فقالا له : من أين حفظت هذه الأحاديث ؟ فقال : والله ما حفظتها ولا أعرفها بل فى وقت قلتها (١) .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على نقض الالتزام الدينى والتهاون فى الرواية عن الرسول ﷺ ، ويدل دلالة قاطعة على جهلهم بخطورة ما يفعلون وضرره . ويسند بعض العلماء كالإمام المنذرى سبب رواية الأحاديث الموضوعة إلى "أن من تقدم من العلماء أساغوا التساهل فى أنواع من التهريب والترغيب حتى إن كثيرًا منهم ذكروا الموضوع ولم يبينوا حاله" (٢) . فأقبل عليه القصاص يأخذون منه ما يوافق رواياتهم .

كذلك يرى الدكتور القرضاوى "أن سبب رواج هذا النوع من الأحاديث الواهية والمنكرة والموضوعة لدى جمهرة الخطباء والمذكرين والواعظين ، هو إطلاق القول بأن جمهور العلماء يجيزون رواية الحديث الضعيف فى فضائل الأعمال . والرفائق والزهد والترغيب والتهريب ، والقصص ونحوها ، مما لا يتعلق به حكم شرعى من الأحكام الخمسة من حل وحرمة ، وكراهة وإيجاب ، واستحباب" (٣) .

وأضاف الإمام أبو حامد الغزالى سببًا نفسيًا يراه دافعًا عند القصاص والواعظ لرواية الموضوعات والإسرائيليات وكل ما هو غريب ؛ فهو يرى أن "الواعظ يجد فى وعظه وتأثر قلوب الناس به وتلاحق بكائهم وزعقاتهم وإقبالهم عليه لذة لا توازيها

(١) الموضوعات ص ٤٤ .

(٢) الترغيب والتهريب عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى تحقيق مصطفى محمد عمارة طبع مصطفى البابى الحلبي ، الطبعة الثانية ١٩٥٤م ، القاهرة ، ص ٣٦ .

(٣) كيف نتعامل مع السنة النبوية ، د . يوسف القرضاوى ، دار الشروق ، ط الخامسة سنة ٢٠٠٨ ، ص ٨٩ .

لذة، فإذا غلب ذلك على قلبه مال طبعه إلى كل كلام مزخرف بروج عند العامة وإن كان باطلاً ، ويفر عن كل كلام يستثقله العوام وإن كان حقاً ويصير مصروف الهمة بالكلية إلى ما يحرك قلوب العوام ويعظم منزلته في قلوبهم^(١) .

وبهذا توزعت أسباب الاقبال على رواية الموضوعات والإسرائيليات في مجالس القصص إلى أسباب عامة بسبب جواز رواية الضعيف في فضائل الأعمال والرقائق والترهيب والترغيب مما سوغ رواية الموضوع أيضاً في هذه الأبواب وخاصة عند القصص والمتصوفة ، وأسباب خاصة ترجع إلى رغبة القصص في جذب العوام إليهم ، إما إرضاء لذواتهم بما يستحذون عليه من احترام وتبجيل من العامة وإما للتكسب المادى بما كان يغدقه عليهم هؤلاء العوام من عطايا . وإما لجهل القصص وإعراضهم عن حفظ صحيح السنة وفهم القرآن الكريم .

موقف العامة من تصحيح العلماء لأحاديث القصص :

حرص القصص على جذب العوام بجمع كل ما هو غريب في مجالسهم من أخبار الأمم السابقة معتمدين على قصص بنى إسرائيل والوعظ والتذكير برواية الأحاديث الموضوعية التى تنسم بالإفراط فى الوعد والوعيد والترهيب والترغيب ؛ مما يأخذ بالباب العوام ويدفعهم إلى الاستماع لما يقولون ويرددونه ويدافعونه عنهم ، ولذلك كان ثقات المحدثين يتعرضون لسخط العامة والإيقاع بهم ، وكم لقى هؤلاء القصص من العامة أذناً صاغية ، ولقى العلماء منهم عنناً كبيراً . يقول ابن الجوزى : "وما أكثر ما يعرض على أحاديث فى مجلس الوعظ قد ذكرها قصاص الزمان فأردها عليهم وأبين أنها محال . فيحقدون على حين أبين عيوب شغلهم حتى قلت يوماً ، قولوا لمن يورد هذه الأحاديث ما يتهياً لكم مع وجود هذا الناقد إنفاق زائف^(٢) . روى السيوطى : "أن قاصاً جلس ببغداد فروى تفسير قوله تعالى :

(١) إحياء علوم الدين ، الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالى ، مطبعة مصطفى البابى الحلبي سنة ١٩٣٩ ، الجزء الثالث ص ٣١٧ .

(٢) الموضوعات ، ص ٤٥ .

﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (١) (الإسراء : ٧٩) وزعم أن الله سبحانه وتعالى سيجلس النبي ﷺ معه على عرشه . فبلغ ذلك الإمام محمد بن جرير الطبري فاحتد من ذلك وبالغ في إنكاره ، وكتب على باب داره "سبحان من ليس له أنيس ولا له في عرشه جليس" فثارت عليه عوام بغداد ورجعوا بيته بالحجارة حتى استد بابيه بالحجارة وعلت عليه (٢) . فهذه الرواية توضح مدى جهل العامة وكيفية تصديقهم للقاص وإيمانهم بمروياته ، وعدم معرفتهم بقدر ومكانة الطبري العلمية وغيره من العلماء وتشير إلى ما كانوا يعانونه عند التصدي لجهل هذه الفئة من القصاص .

ولم يكن العامة يعتمدون في فهم القرآن وحده على القاص ، وإنما في الإفتاء أيضا كانوا يلجأون إلى القصاص ، ومن طريف ما روى في ذلك ما ذكره ابن الجوزي بسنده عن حجرين عبد الجبار الحضرمي قال : في مسجد قاص يقال له زرعة ، فأرادت أم أبي حنيفة أن تستفتي في شيء فأفتاها أبو حنيفة فلم تقبل ، وقالت : لا أقبل إلا ما يقوله زرعة القاص فجاء بها أبو حنيفة إلى زرعة فقال : هذه

(١) قال الفخر الرازي في تفسير المحمود أقوال : الأول أنه الشفاعة وقال الواحدى : أجمع المفسرون على أنه مقام الشفاعة . ونقل الفخر الرازي عن مجاهد قوله معنى المقام المحمود أن يجلسه معه على عرشه ، ثم فند هذا القول على عدة أوجه ورده بأن هذا القول "قول كلام رذل ساقط لا يميل إليه إلا إنسان قليل العقل ، قليل الدين . "التفسير الكبير ، الفخر الرازي ، طبعة أولى ج ٣٢/٢١ بتصرف . أما القرطبي فقال أن أصح الأقوال هي الشفاعة للناس يوم القيامة ثم أورد عدة أقوال أخرى منها : ما حكاه الطبري عن فرقة قالت : المقام المحمود هو أن يجلس الله تعالى محمدا ﷺ معه على كرسيه وروت في ذلك حديثا ، وعقب القرطبي بقوله "وعضد الطبري جواز ذلك بشطط من القول ، وهو لا يخرج إلا على تلطف في المعنى وفيه بعد ولا ينكر مع ذلك أن يروى "القرطبي يرى أن الطبري جوز هذا المعنى الغريب للمقام المحمود وهذا يتعارض مع ما رويناه وما هو معروف عن الطبري في رفضه لهذا التفسير وأنه كتب على باب داره سبحانه من ليس له أنيس . الجامعة لأحكام القرآن القرطبي طبعة ٣ ج ٣١١/١٠ .

(٢) تحذير الخواص من أكاذيب القصاص ، جلال الدين السيوطي ، مطبعة المعاهدة ،

١٣٥١هـ - ص ٥٤ .

أمي تستفتيك في كذا وكذا فقال : أنت أعلم مني وأفقه فأفتتها أنت . فقال أبو حنيفة : قد أفتيتها بكذا وكذا فقال زرعة : القول كما قال أبو حنيفة ، فرضيت وانصرفت (١) .

وهذه قصة أخرى توضح كيف سيطر القصاص على عقول الناس ، فوثقوا فيهم واعتمدوا عليهم حتى في العلوم الشرعية والفتيا . وبلغ الأمر أن أم الإمام الجليل ترفض أن تأخذ بفتواه وتصر أن تعرف الفتوى من القاص ، وحينما رضى بما قال أبو حنيفة رضيت هي الأخرى .

وقد نقل السيوطي عن ابن الجوزي خبر الشعبي وما ناله من-الضرب والإهانة عندما تصدى لمجلس القاص في المسجد يصحح أحاديثه قال الشعبي : "بينما عبد الملك جالس وعنده وجوه الناس من أهل الشام قال لهم : من أعلم أهل العراق ؟ قالوا: ما نعلم أحداً أعلم من عامر الشعبي ، فأمر بالكتاب إلى فخرجت إليه حتى نزلت "تدمر" فوافقت يوم جمعة فدخلت أصلى في المسجد فإذا إلى جانبي شيخ عظيم اللحية قد أطاف به قوم فحدثهم قال : حدثني فلان عن فلان يبلغ به النبي ﷺ أن الله تعالى خلق صورين له في كل صور نفختان ؛ نفخة الصعق ونفخة القيامة ، قال الشعبي : فلم أضبط نفسي أن خففت صلاتي ثم انصرفت فقلت : يا شيخ اتق الله ولا تحدثن بالخطأ ، إن الله تعالى لم يخلق إلا صوراً واحداً وإنما هي نفختان نفخة الصعق ونفخة القيامة فقال لي : يا فاجر إنما يحدثني فلان عن فلان ترد على ثم رفع نعلي وضربني بها وتتابع القوم على ضرباً معه ، فوالله ما أقلعوا عني حتى حلفت لهم أن الله تعالى خلق ثلاثين صوراً له في كل صور نفخة فأقلعوا عني فرحلت ، حتى دخلت دمشق ، ودخلت على عبد الملك فسلمت عليه فقال لي : يا شعبي بالله حدثني بأعجب شيء رأيته في سفرك فحدثته حديث المتقدمين فضحك حتى ضرب رجله (٢) .

وقد أوردت القصة كاملة لما بها من عدة دلالات ، الدلالة الأولى : تشير إلى أن الشعبي بالرغم من معرفة أهل الشام من المهتمين بعلوم الدين بمكانته العلمية وأنه أعلم أهل العراق فإن العامة لا يعلمون عنه شيئاً .

(١) المرجع السابق ص ٨١ .

(٢) تحذير الخواص من أكاذيب القصاص . السيوطي ص ٥٢ ، ٥١ .

الثانية : أن أى قاص يجلس فى المسجد يعظ ويذكر وإن كان قليل العلم له عند العامة من الاحترام والطاعة ما لم ينله كثير من العلماء .

وما أشبه اليوم بالبارحة فما زال حولنا كثير من وعاظ زماننا يجذبون العامة والشباب بما يخاطبونهم من أفكار وآراء بعيدة عن الروح الإسلامية بل وأحيانا تكون متشددة معتمدين على ضعف الثقافة الدينية لدى العامة والمتحمسين الذين يجدون فى آرائهم ما يشبع نزعاتهم .

والثالثة : تصدى العلماء لهذه الأباطيل كان يواجه بمنتهى الاستكثار والعنف من العوام فإن الشعبى نال من الأذى والإهانة ما لا يخطر على بال ، حتى تراجع عن تصحيح ما يقوله القاص وأقره على ما يقول ، بل وزاد عليه حتى يتركوه .

أما الدلالة الرابعة : فهى موقف الحاكم عبد الملك ، فقد أخذ الموقف على محمل الهزل والفكاهة ولم يتصد لمثل هذا القاص ومجلسه وما به من خرافات وأباطيل ، وربما وجد فيما حدث مستندا لدعم ملكه العضود .

ولعل من أهم أسباب شيوع المرويات والأحاديث الموضوعة فى مجالس القصاص تهاون الحكام والأمراء معهم وعدم محاسبتهم أو ردعهم ، وإن كان بعض الحكام قد تتبعوا روايات الزنادقة وكانوا شديدي القسوة فى محاسبتهم . ومثال ذلك ما أخرجه ابن عساكر عن الرشيد أنه جئ إليه بزنديق فأمر بقتله : يا أمير المؤمنين أين أنت عن أربعة آلاف حديث وضعتها فيكم ، أحرم فيها الحلال ، وأحل فيها الحرام . ما قال النبى - ﷺ - منها حرفاً . فقال له الرشيد : أين أنت يا زنديق من عبد الله بن المبارك وأبى إسحاق العزارى ، ينخلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً^(١) .

فالأمر لم يكن مطلقاً ولكن ربما أحسن بعض الحكام الظن فى نوايا هؤلاء القصاص ، كما أن وجود بعض القصاص العلماء الأمناء ممن اشتهر بقراءة القرآن ورواية الحديث ، أو كان من الشعراء أو الأدباء المعروفين جعل الحكام لا يتتبعونهم فى مجالسهم أو يغلظون فى محاسبتهم .

(١) تحذير الخواص ، للسيوطى ص ٥٥ .

٣- موقف العلماء من القصاص وضوابط القص المقبول عندهم :

لما وجد العلماء أن هذا اللون من القصص الذى يجرى على ألسنة هؤلاء القصاص يمكن أن يفسد حديث النبى ﷺ ، ويُدخل فيه ما ليس منه ، وكذلك يمكن أن يؤدى إلى تشويه فهم القرآن الكريم ، بادروا بالتصدي لهذه الظاهرة الخطيرة وحاولوا إيقافها بكل الوسائل ، وسنذكر مثالين لهذا الموقف العلمى والدينى فى الوقت نفسه .

أ- موقف ابن الجوزى من مجالس القصاص :

حرص ابن الجوزى على فضح أكاذيب القصاص وكشف أساليبهم فى مخاطبة العامة وأن الفئة التى يوجه إليه القصاص حديثهم هم أصحاب العقول الضعيفة ، الذين يستمدون ثقافتهم الدينية من هؤلاء القصاص فقط ويرددون ما يقولونه بثقة ، "إن القاص يروى للعوام الأحاديث المنكرة ويذكر لهم ما لو شم ريح العلم ما ذكره ، فيخرج العوام من عنده يتدارسون الباطل فإذا أنكر عليهم عالم قالوا : قد سمعنا هذا بأخبرنا وحدثنا . فكم قد أفسد من الخلق بالأحاديث الموضوعية ، كم لئن قد اصفر بالجوع ، وكم هائم على وجهه بالسياحة ، وكم مانع نفسه ما قد أبيع ، وكم تارك رواية العلم زعما من مخالفة النفس فى هواها فى ذلك ، وكم موتم أولاده بالتردد وهو حى ، وكم معرض عن زوجته لا يوفيهما حقها فهى لا أيم ولا ذات بعل^(١) ". فى هذا النص فصل ابن الجوزى الأضرار التى يتسبب فيها أحاديث القصاص ، والتى لا تقتصر على التزييف وإدخال كثير من الأباطيل والأكاذيب فى الفكر الدينى وما أدت إليه من أضرار نفسية تؤثر على أفراد المجتمع وسلوكياتهم ، ونصرفاتهم ، وتعاملاتهم مع بعضهم لما لهذه الفئة من تأثير قوى على العامة فى ذلك الوقت. ولهذا يرى "أن معظم البلاء من القصاص لأنهم يريدون أحاديث ترقق وتنفق ، والصحاح تقل فى هذا"^(٢) .

(١) الموضوعات لأبى الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى القرشى ، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ، دار الفكر ط الثانية ١٩٨٣ ، ص ٣٢ .

(٢) السابق ص ١٢٧ .

ولذلك وضع ابن الجوزى شروطاً لما يجب أن يكون عليه القاص فقال : 'ولا ينبغي أن يقص على الناس إلا العالم المتقن فنون العلم ، الحافظ لحديث رسول الله العارف بصحيحه وسقيمه ، ومسنده ، ومقطوعه ، ومعضله ، العالم بالتواريخ وسير السلف الحافظ أخبار الزهاد ، الفقيه فى دين الله العالم بالعربية واللغة ومدار ذلك على تقوى الله وأن يخرج من قلبه الطمع فى أموال الناس .. وأضاف : وينبغى للواعظ أن يترك فضول العيش ويلبس متوسط الثياب ليقضى به^(١) ..

وهذه الضوابط التى وضعها ابن الجوزى تشمل عدة جوانب منها جانب عملى للقاص فى تمكنه من علوم الدين واتقانه للغة وأساليبها المختلفة ، وجانب نفسى بوصفه قدوة للمخاطبين من العامة ، فيجب أن يكون مترفعاً عن العطايا والهبات قنوعاً يتقى الله ، معتدلاً المظهر والسلوك فى ملبسه ومأكله ليكون مقنعاً فى وعظه وتذكيره مؤثراً فى المخاطبين .

هذا دليل على عدم رفض ابن الجوزى لعامة القصاص ولكنه يرفض تلك الفئة من القصاص الذين يدخلون الأحاديث الموضوعية ويتصنعون الخشوع والبكاء ليرفقوا قلوب العوام ، وينالوا العطايا والهبات ، فيرون كل ما اتصل إليه آذنه دون تحرى الدقة أو الحرص على التثبت من الرواية .

ب- موقف الغزالي من القصاص والوعاظ وشروطه لنقص المحمود :

هاجم الإمام أبو حامد الغزالي القصاص الذين يروون الموضوعات والإسرائيليات وذكر أقوال السلف فى القصص المذموم ومنه قول الإمام أحمد بن حنبل "أكثر الناس كذبا القصاص والسؤال"^(٢) ونقل عن الإمام على أنه "أخرج القصاص من مسجد البصرة ، فلما سمع كلام البصرى لم يخرج" ، ثم عرض لمجلس الحسن البصرى وأنه كان فى مجلسه يتكلم فى علم الآخرة والتفكير بالموت ،

(١) تحذير الخواص ، ص ٧٨ نقلا عن "القصاص والمذكرين" للحافظ ابن فرج الجوزى المقدمة .

(٢) المرجع السابق .

والتنبيه على عيوب النفس وآفات الأعمال ، وخواطر الشيطان ووجه الحظر منها ويذكر بآلاء الله ونعمائه ، وتقصير العبد في شكر ربه ويعرف حقارة الدنيا وعيوبها وتصرمها ونكت عهدها وخطر الآخرة وأهوالها^(١) ، ثم ختم كلامه بأن "هذا هو التذكير المحمود شرعا" ، ثم وضع أن الذكر والوعظ المذموم هو اختلاف القصص البعيدة عن ما جاء في القرآن وصحيح السنة^(٢) .

وضح الغزالي شروطا للقصص المحمود المباح فقال : "إن من القصص ما ينفع سماعه ومنها ما يضر وإن كان صدقاً ، ومن فتح ذلك الباب على نفسه اختلط عليه الصدق بالكذب والنافع بالضرار فمن هذا نهى عنه .. ولذلك قال أحمد بن حنبل - رحمه الله : "ما أحوج الناس إلى قاص صادق فإن كانت القصة من قصص الأنبياء عليهم السلام فيما يتعلق بأمور دينهم وكان القاص صادقاً صحيح الرواية فليست أرى به بأساً . فيحذر الكذب ، وحكايات أحوال تؤول إلى هفوات أو مساهاطات يقصر فهم العوام عن درك معانيها ... فبعد الاحتراز عن هذين المحذورين فلا بأس به ، وعند ذلك يرجع إلى القصص المحمودة وإلى ما يشتمل عليه القرآن ويصح في الكتب الصحيحة من الأخبار .."^(٣) .

فالغزالي يدعو في النص السابق إلى ضرورة مراعاة عقلية العوام عند القص ، وأنه لا يجب أن يقص عليهم كل شيء ولو كان صحيحاً مستمداً من القرآن الكريم والسنة النبوية . لعجز عقولهم عن إدراك حكمة بعض الأحداث والوقائع ، ولهذا نجد الغزالي لم يهاجم القصص النقات ولم يستنكر إلا المرويات الكاذبة المزيفة التي وضعت على الرسول والقصص التي أخذت من الأسرائيليات ، أما ما التزم الصدق والأمانة في العرض واستمد من القرآن الكريم وصحيح الحديث فلا بأس به ولا مانع . وهو يعتبر عنده من القصص المحمود مع الاحتراز .

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها .

مما سبق نستطيع أن نجمل ضوابط القص المحمود فى النقاط التالية :

١- الالتزام بما جاء فى القرآن الكريم ، وصحيح السنة النبوية .

٢- اتقان القاص للعلوم العربية والعلوم الإسلامية .

٣- أن يكون القاص صادقا وأمينا فى روايته .

٤- ما يعرضه القاص يكون بعيدا عن أى خلط أو شبهات ولذلك يجب أن يكون لديه ملكة الاقتناع والتأثير فى الآخرين .

خاتمة البحث

١- أثبتت الدراسة أن مجالس القصاص لم تبدأ من عهد الخليفة عمر بن الخطاب كما ذكر ابن عساکر وبعض المصادر بل هى ممتدة إلى عهد الرسول ﷺ ومستمدة منها وإن كان هناك تخوف مما يقال فيها ولذلك اختلف موقف الصحابة منها وقابلوها بالحذر .

٢- لم تكن مجالس القصاص كلها تتضمن رواية الموضوعات والإسرائيليات ، ولكن هذه المجالس كان يقص فى بعضها فئة من القصاص الأمناء الثقة لا يرون إلا ما هو من صحيح السنة ولا يدخلون على تفسيرهم أقاصيص بنى إسرائيل أو غيرها وكان منهم قراء ، ومحدثون ، وشعراء ، وفقهاء لهم مكانتهم كالحسن البصرى سيد التابعين ، وعبد الرحمن بن عمرة المحدث الذى وثقه البخارى وروى عنه ، وكذلك محمد بن قيس قاص عمر بن عبد العزيز الذى روى عنه البخارى أيضا ، وقاص أهل مكة المحدث الجليل عبيد بن عمير ، وغيرهم كثير .

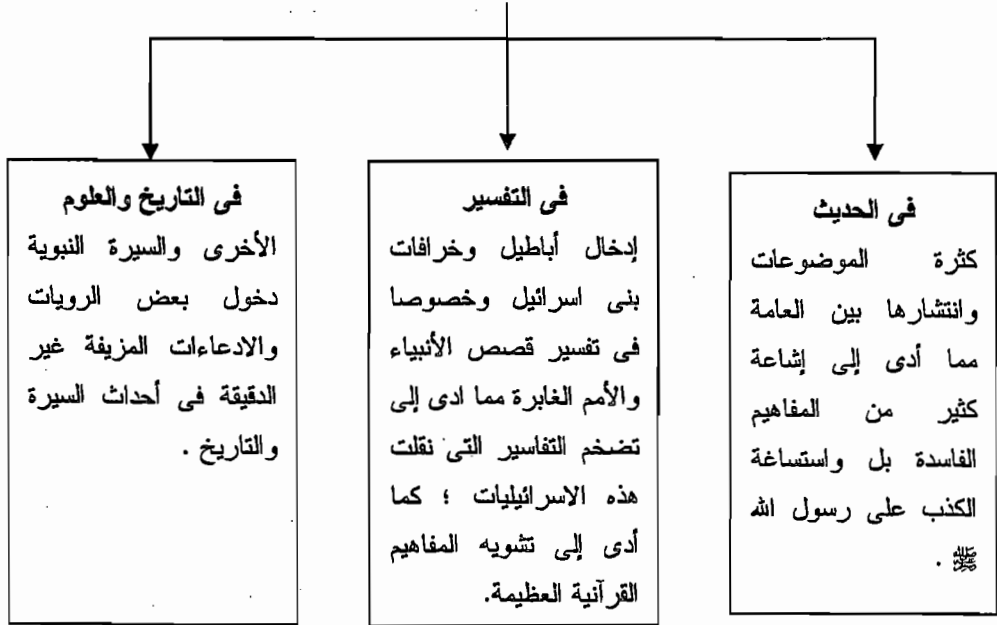
وهناك فئة أخرى من القصاص الذين كانوا يوجهون حديثهم للعامة فيدخلون عليه الموضوعات والإسرائيليات مما لا يتفق مع العقل أو النقل لجذب العامة وترقيق قلوبهم وغيرها من الأسباب التى ذكرناها فى الدراسة .

٣- كما لاحظنا أن العلماء الذين ناقشوا هذا الموضوع كابن الجوزى ، وابن قتيبة ، والغزالي لم ينكروا مجالس القصاص والوعاظ بوجه عام ؛ وإنما وضعوا ضوابط

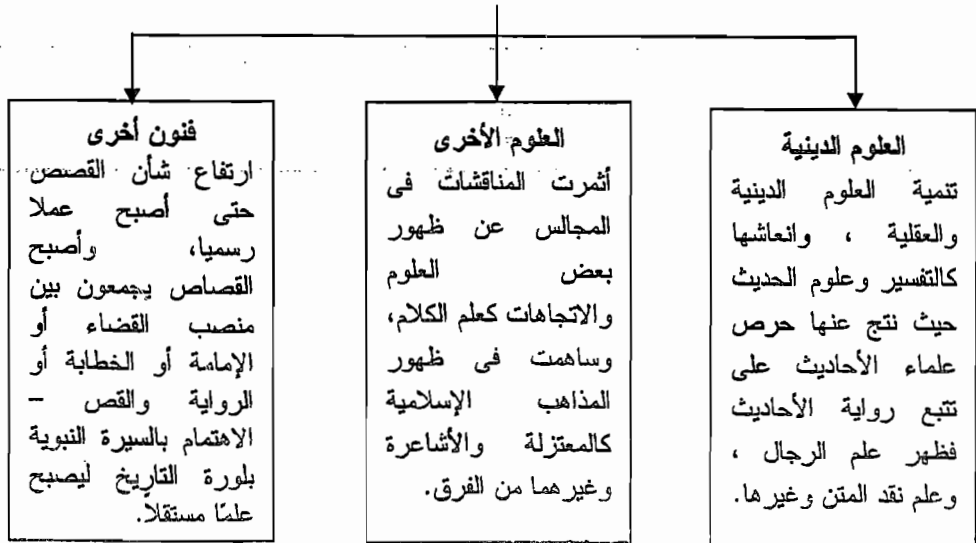
للقصص المحمود ومن التزم بهذه الشروط قبل مجلسه ، أما من أدخل الموضوعات والإسرائيليات وساعد على نشرها فقد تصدى العلماء له بقوة وحزم .

٤- يمكن أن نوجز أهم أضرار ومنافع مجالس القصص والوعاظ فيما يلي :

أولاً : ما نتج عن مجالس القصص في الوعظ والذكر من أضرار



ثانيا : إيجابيات مجالس القصص



ثبت المصادر والمراجع

- ١-أحياء علوم الدين ، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٣٩م ، مصر .
- ٢-إسلام بلا مذاهب ، مصطفى الشكعة ، دار الشروق ، مصر ط١٤ .
- ٣-أصول التفسير ، الإمام ابن تيمية ، المكتبة السلفية ، ط١ مصر .
- ٤-الإصابة في تمييز الصحابة ، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد علي العسقلاني المعروف بابن حجر ، ت صدقي جميل العطار دار الفكر طبعة أولى ، بيروت ٢٠٠١ .
- ٥-البيان والتبيين ، أبو عثمان عمرو بن الجاحظ تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر .
- ٦-تاريخ مدينة دمشق ، لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمرو بن غرام العمروى ط دار الفكر ، بيروت ١٩٩٥ .
- ٧-تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي) د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، د.ت.
- ٨-تذكرة الحفاظ ، لأبي عبد الله بن شمس الدين محمد الذهبي ، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي ، دار الكتب العلمية ط ١٣٧٤هـ .
- ٩-تحذير الخواص من أكاذيب القصاص ، جلا الدين السيوطي ، ط مطبعة المعاهدة ، القاهرة ، ١٣٥١هـ .
- ١٠-تهذيب التهذيب ، للحافظ شهاب الدين بن حجر العسقلاني ، مراجعة صدقي جميل العطار ، ط١ دار الفكر ، بيروت .
- ١١-الترغيب والترهيب ، عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى ، تحقيق مصطفى محمد عمارة ط٢ مطبعة مصطفى الحلبي ، ط٢ القاهرة ١٩٥٤م .
- ١٢-التفسير الكبير ، فخر الدين الرازي ، ط١ ، المطبعة البهية بمصر ١٩٣٨م .
- ١٣-السنة ومكانتها في التشريع ، مصطفى حسنى السباعي ، ط١ مصر ١٩٤٩م .
- ١٤-الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الانصارى القرطبي ، الطبعة الثالثة ، عن طبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٦٧م .
- ١٥-صحيح مسلم بشرح النووي ، الطبعة الأولى ، ١٩٢٩م .
- ١٦-ضحى الإسلام ، أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية .

- ١٧- الطبقات الكبرى ، محمد بن سعد .
- ١٨- علم الحديث ، أحمد بن تيمية ، تحقيق موسى محمد على ، دار التوفيق النموذجية الطبعة الأولى ١٩٨٤ م .
- ١٩- فتح الباري : شرح صحيح البخاري ، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، ت عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، دار المنار الطبعة الأولى ١٩٩٩ م .
- ٢٠- فجر الإسلام ، أحمد أمين ط ٢ مطبعة النهضة المصرية ، ١٩٧٨ م .
- ٢١- كيف نتعامل مع التراث والتمازج والاختلاف د . يوسف القرضاوى ، ط ٣ مكتبة وهبة، القاهرة ٢٠١١ م .
- ٢٢- كيف نتعامل مع السنة د . يوسف القرضاوى ط ٥ دار الشروق ، القاهرة ٢٠٠٨ م .
- ٢٣- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن محمد القاسم ، مكتبة المعارف ، المغرب .
- ٢٤- المرجعية العليا فى الإسلام القرآن والسنة د . يوسف القرضاوى ، ط ١ .
- ٢٥- معجم الأدباء ، ياقوت الحموى الرومى ، تحقيق إحسان عباس ، دار العرب الإسلامى ، بيروت، لبنان .
- ٢٦- معرفة المجروحين من المحدثين ، ابن حيان ط دار الوعى ، حلب ١٣٩٦ هـ .
- ٢٧- المكونات الأولى للثقافة العربية د . عز الدين إسماعيل ، أبولو للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٦ م .
- ٢٨- مناهج التأليف عند العرب ، مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين ، بيروت .
- ٢٩- منهج النقد فى علوم الحديث د . أنور الدين عتر ، ط ٢٨ دار الفكر ، بيروت ٢٠٠٧ م .
- ٣٠- الموضوعات ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزى القرشي ، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ط ٢ دار الفكر العربى ، بيروت ١٩٨٣ م .
- ٣١- نشأة الآراء والمذاهب والفرق الكلامية ، يحيى هاشم حسن فرغلى ط مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ١٩٧٢ م .
- ٣٢- نشأت الفكر الفلسفى فى الإسلام ، على سامى النشار ، ط ٧ دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧ م .
- ٣٣- الوسيط فى علوم الحديث ، د . محمد محمد أبو شهبه ، ط دار الفكر العربى بالقاهرة د . ت .

* * *